الاسماء

اطلقت الاسماء في كل امة يلفتها على الاشياء والاشخاص تعريفاً لاعيانها وتفرقةً بين الشيء الواحد والآخر فتراهم سموا الشجرة باسمها ليميزوها عما سموهُ نهرًا . وعلى هذا المنهاج جعلوا يسمون الاشخاص باسماء ينفرد كل فردٍ منهم باسمهِ فيمتاز بهِ عن سواهُ

وفي المجتمعات الاولى كان عدد الافراد قليلاً فيخال ان الاسماء الموضوعة لافرادها من الذكور والاناث كانت يومئذٍ كافية لهم ولكنهم لما تناسلوا فازدادوا عددًا لم يبقَ لكل فردٍ اسم يستقل بهِ فيعرف متى ذكر اسمهُ فاضطروا ان يزيدوا الاشخاص تعريفاً بنسبة الفرد الى اسم ابيهِ . ففي الحالة الاولى يكتفى لمعرفة زيد بمجرد ذكر اسمهِ لان المجتمع صغير وليس فيهِ زيدٌ آخر بخلاف الحالة الثانية حين تعذرت الاسماء عن الاشخاص فنشأ زيدٌ ثانٍ وربما ثالث ورابع فصاروا يعرّفون زيدًا بنسبتهِ الى ابيهِ عبيد والآخر الى ابيهِ خالد وهلمَّ جرًّا

لكن المجتمعات متى كثر افرادها واتسعت واضطرت الى استكثار المنافع والمرافق تختار التجزؤ وتنفصل منها عيال واتخاذ وتبتعد عن مواطنها الاولى الى مواطن اخرى . فيبقى منهاج التسمية جاريًا ولكن قد تبقى الصلة بين المنفصلين ويضطر كل فريق الى اتخاذ الاسماء المألوفة تتعدد ولا يؤمن وقوع اللبس بين الاشخاص المتشابهين اسمًا ولو اختلفوا دارًا الاَّ بما يميزهم ولذلك صاروا يزيدونهم تعريفاً بنسبتهم الى مواطنهم

الاَّ ان هذه القواعد التي يخال ان الناس جروا عليها في بدء امرهم لم تكن تخلو من الشواذ كأن يكون الشخص معرّفًا بصفاتهِ واعمالهِ فاذا ذكر اسمهُ مجردًا عُرف

كل هذا لم يذكر في نصٍّ تاريخي او كتابةٍ اثرية ولكنا نظنهُ واقعيًّا بحكم التمثيل . الا ترى ان العائلة الواحدة عند بدء نشأتها وقلة افرادها يمتاز آحادها باسمائهم ولكنها متى كثر عديدها وتشعبت فروعها يضطر الآباء الى تسمية صغارهم بالاسماء المألوفة في اسرتهم ولمزيد التعريف يعرف المسمى باضافتهِ الى اسم ابيهِ . فاذا كان هذا حال ابناء العيال في يومنا هذا ونحن مقتدرون على استمارة اسماء جمة من لغاتٍ شتى فما القول بابناء المجتمعات الاولى المقتصرين على الاسماء التي يعرفونها

واما نسبة الافراد لاوطانهم فلعلها تستنتج ايضاً من التمثيل اذ نرى في بعض القرى والمزارع حتى في المدن الحافلة كثيرين ينسبون الى اوطانهم

ولا نعدم دليلاً تاريخيًّا على بعض ما خمنا الاَّ في بدء انتظام المجتمعات لان النصوص

والآثار قاصرة على الكلام في الاسم ذات الشأن ولا شأن لغير الراقين . وانا نرى الكتابات الاثرية تروي عن المجتمعات الراقية ما يدل على ان الاسماء كانت تعرَّف اما بالنسبة الى الاب او ببيان آخر . فقد اتصل بنا من آثار الاسرة السادسة المصرية (في القرن الثامن والثلاثين قبل المسيح على رأي مريت) كتابة لرجل من عظماء المصريين اسمهُ اوني لم يذكر فيها اسم ابيهِ ولكن ذكرت وظائفهُ وحظوتهُ لدى الملك اوناس . ومثل هذا نرى كتابة سينهويت احد عظماء مصر في زمن الدولة الثانية عشرة وفي اواسط القرن التاسع والعشرين ق . م) تذكر اسم صاحبها ووظائفهُ من غير ذكر ابيهِ مع انها توهمت بانهُ من انسباء مزبني الملك

فذكر اسمي هذين العظيمين مجردين عن النسبة لا يطعن في ما ضمناهُ من المنهج القديم لانهُ قد يمكن ان يكون اسماهما من الشهرة الراسمة بحيث يستغني بذكرهِ عن الانتساب او ان ذكر وظائفهما السامية كفاهما في التعريف مؤنة المزيد

و يظهر من الآثار الكتابية التي وجدت في تلوح من بين النهرين ويحسب زمانها واقعاً بين عصريّ الدولتين السادسة والحادية عشرة من الدول المصرية ان الاسماء تذكر فيها تارةً منسوبةً وطوراً مجرّدة اعتبر ذلك بما ورد في صدر احداها المفتتحة باسم " نيناور ملك شيربورلا ابن نيني غال جين " وفي صدر الاخرى " اوروكاجينا ملك شيربورلا "

و يغلب في هذه الكتابات المكتشفة في تلوح ذكر الملوك والاحبار من غير انتساب بل يكتفى بمناسبهم ومثل ذلك في المراسلات التي دارت بين قراعنة مصر وعمالهم في فلسطين قبل زمن خروج بني اسرائيل مما يعرف بمكتشفات تل العمارنة ان اصحاب تلك الرسائل يذكرون اسماءهم المجرّدة حتى انهم بمخاطبة الملوك لا يسمونهم وانما تجدهم في بعض رسائلهم يقولون هكذا : الى الملك سيدي آلهتي (بالجمع) الهي الشمس الخ . وفي غيرها الى سيدي الملك . ويكتفون بذلك الا ان في بعض الرسائل تخصيصاً اذ يقولون الى ملك مصر سيدي

فكأن مقام الملك وشهرتهُ تغنيان مراسليهِ عن الافصاح في تسميتهِ وعلى هذا الطرز يستغنون عن مزيد التعريف في مخاطبة العظماء فترى بين رسائل تل العمارنة رسالة من عزرو الى ابيهِ دودو من كبراء موظفي مصر يقول فيها الى دودو سيدي وابي انكلم انا عزرو ابنك وعبدك الخ

واذا عرض في تلك الرسائل ذكر ثالث فاما انهُ يذكر اسمهُ مجرداً كعبد طوب وملك عريل وغيرهما واما يُنسب الى ابيهِ كنكي بن ماراتيم او يُعرف بوظيفتهِ كنكوني البواب

واما عند العرب فمعلوم ما كانوا عليهِ في الجاهلية من سكنى البادية قبائل وافخاذاً . وقد

اتصل بنا من اخبار مجتمعاتهم نزر قليل يدل على ان الاسماء التي كان يعرف بها الاشخاص قليلة العدد وانها كانت منتشرة بين كل القبائل يتسم بكل اسم منها جماعة ولكن الميزة بين المعرّفين بالاسم الواحد لم تكن ميسورة الاّ بنسبة كل منهم الى ابيهِ وجدهِ بل قد تطول بواحدهم سلسلة الانتساب الى ثلاثة او اربعة من الجدود ثم تنتهي بالانتساب الى القبيلة . ومما ذكر ابو حاتم السجستاني في كتاب المعمرين ان قس بن ساعدة كان اول من كتب الى فلان بن فلان . الاّ ان هذه الرواية لا تحملنا على الظن بان العرب كانوا يكتفون قبل زمنهِ بالاسم المجرّد لان زمن قيس بن ساعدة حديث وكانوا ينتسبون قبلهُ

ثم ان العرب في جاهليتهم كانوا يعرفون بالانتساب الى قبائلهم كأن يُقال قس بن ساعدة الايادي واسية ابن ابي الصلت الثقفي وامثالها. فلما جاء الاسلام ظلت النسبة للقبيل جاريةً في صدرهِ ثم تتلاشى ظلها تدريجاً بما طرأ على الناس من الاستبعاد عن خصائص البداوة وانهاج مناهج الاعاجم الذين خالطوهم ولم يبقَ محافظاً على النسبة العربية الاّ بعض الافراد من الاشراف الذين يفتخرون بالانتساب لقريش او لبعض القبائل المشهورة او الاماكن المقدسة . الاّ ان الاحتفاظ بالانتساب على طولها كان تاماً في التدوين والكتابة بخلاف الحال في المعاملات اليوميّة

ومما يعرف بهِ العرب ورجالهم الكنية وهي ان يقال فلان ابو فلان ومثل ذلك ان يقال ابن فلان وقد امتدّ بهم زمن هذا الانتساب اجلاً طويلاً من عصر الجاهلية حتى تجوزوه الممالك الاسلامية واختلاط اهاليها بالترك والبربر والافرنج . ومن امثلة الكنية ابو الطيب وابو العتاهية ومن امثلة الانتساب للاباء ابن خلدون وابن زيدون

ولقد بحث بعض كتبة العصر في الاسماء فرأوا انهُ يغلب فيها ان تكون منذ اصلها قد وضعت للدلالة على معان تؤديها الفاظها . وان الاسماء القديمة التي اتصلت بنا ويظهر انها مرتجلة لا معنى لها ربما كان اكثرها بقية لغات بائدة او هي محرّفة عن الفاظ اخرى تحريفاً ابعدها عن المفهوم من اصلها . والاسماء المعروفة لهذا العهد من بقايا القدم تجدها عبرانية وتؤدي معاني مخصوصة . والاسفار المقدسة تظهر النسق العبراني في التسمية شبيهاً بنسق معظم القدماء من حيث الانتساب للاباء

وكأن الناس جروا على ذلك الطرز زمناً طويلاً حتى وقع لبعض الافراد ما ميزهم عن سواهم بما وسموا بهِ من وصف ارتجل في معرض مدح او ذم او بيان عمل او غير ذلك مما يعرض للانسان . فلحقهم ذلك الوسم وصار علامة فارقة لصاحبهِ يمتاز بهِ عن اقرانهِ . مثال

ذلك اصحاب الحرف والصناعات ورجال الحرب والقلم وخدمة الدين فانهم كلهم يتمازون بوصفهم من بين جمهور الناس ويوصف واحدهم بهذا الوصف ويعرف باللقب

واللقب على ما حدَّده العرب واحدٌ من ثلاثة تشريف وتعريف وتخفيف فاما التشريف فهو ما يتصف به الانسان مدحاً لشرفه او شجاعته او كرمه او غير ذلك من الصفات الآيلة لمجده . والتعريف ما يعرف به اصحاب الصناعات كالحداد والنجَّاس والسيَّاف وغيرهم . والتخفيف كالاعرج والالثغ وامثالها وهذا الثالث منهيٌّ عنهُ في شرع المسلمين الاَّ اذا ارتضاهُ المتصف به . ويقول اللغويون ان الاول يفيد رفعة والاخير ضعةً واما عند الافرنج فاللقب يتناول اسم الوطن ايضاً اذا لحق باسم الفرد كأن يقال زيد المصريّ لكلمة مصري تعتبر لقباً لزيد

وهذه الالقاب نشأت لتعريف بعض الافراد ولكنها في كثير من الاحوال لحقت باعقابهم من بعدهم لانها بتعريفها الآباء صارت لهم علماً فعرفوا بها هم انفسهم . الاَّ انها لم تكن في بادىء الامر مما جرى عند كثير من الامم على ما ظهر لنا من تواريخهم وآثارهم . بخلاف العرب فانهم ولئن كانوا على منهاج غيرهم فقد جرى عندهم اللقب شوطاً بعيداً واتسم به كثيرون منهم في جاهليتهم وصدر الاسلام ولكنهُ على الاكثر لم يتعدَّ اصحابهُ ليلحق باعقابهم

اما اليونان فالظاهر من شعر هوميروس انهم كانوا يعرّفون الفرد بنسبته الى ابيه وقد يتسمون باسم امه اذا كان ذلك من مناخره . ومنهاجهم هذا جرى معهم في كل مواطنهم حتى في ايطاليا مع ان بعض ارجائها التي لم تخضع لهم بل ظل الامر فيها للاتروسكان كان هؤلاء يعرّفون باسماء عيالهم . وهذه العيال اتسمت من قبل ذكرها في التاريخ باسما جعلتها اعلاماً وهي في اصلها اما اسماء افراد جعلت بمرور الايام اعلاماً للعيال واما القاب او نعوت صارت كذلك

ولما استفحل امر الرومان تابعوا الاتروسكان في منهاجهم واخذوا عنهم بعض القاب العيال كهوراتيوس وليفيوس ومرقص وسيفروس وامثالها . ولما انتظمت الشؤون الرومانية اصبحوا يقسمون سكان مدينتهم العاصمة الى اخلاف جمة يسمونها بلغتهم gentes وكل فخذ منها بقسمونهُ الى عيال فكنت تراهم اذا ارادوا تعريف فرد منهم ذكروا لهُ ثلاثة اسماء اسمهُ الشخصيّ واسم عائلتهِ واسم الفخذ المنسوبة اليه . كقولهم بوبليوس كورنيليوس شيبيو فبوبليوس اسم الرجل وكورنيليوس اسم فخذه وشيبيو اسم عائلته ومعنى شيبيو العصا وقد

سمي بها جدهُ كناية عن ان اباهُ كان اعمى وهو يبرُّ بهِ ويقودهُ وانما جعلوا لهذه التسمية لقب تشريف

والتلقيب كان على اتمّهِ عند الرومان فان قادة الجيوش الذين يستبسلون في القتال ويبلون في الاعداء بلاءً حسناً كانوا ينالون انعاماً من الندوة العليا ان يضيفوا الى اسمهم الملك لقبًا agnomen يكون في الغالب احسن ذكرى لظفرهم كما ترى في القاب كورليانوس وافريكانوس وجرمانيكوس

الاَّ ان سواد الامة الرومانية كان لا يخلو على بعض الناس بالقاب مصوغة من العيوب والصفات التي يرونها فيهم فتصبح الالقاب تعريفًا لحامليها يميزون بها كقولهم لبجر ومعناها الاسود وبارلوس وتعريبها الصغير وكالفوس ويراد بها الاصلع الى غير ذلك

اما اوربا فانها لما تنصّرت اضطرَّ سكانها ان يغيروا الاسماء القديمة ليخلعوا باطراحها كل اثر وثني وشرعوا يتحلون الاسماء الواردة في التوراة والانجيل . ولم تكن تلك الاسماء كافيةً لجماهير المتنصرين وكان القسوس يخلصون حفلات العماد (التعميد) ويعمدون الناس شراذم شراذم وتجنبًا لتسمية كل معمَّد باسم مخصوص كانوا يطلقون اسم يوحنا او بطرس او بولس على كل شرذمة عمدوها في وقت واحد فيلحق الاسم الجديد بكل فرد من افرادها . ولكن شيوع الاسم الواحد بين كثيرين يخرجهُ من بين الاعلام المميزة فاحتاجوا ان يعدلوا في التعريف الى القاب مستحدثة اتخذوها من حرفهم وصناعاتهم واعمالهم وغير ذلك . وقد شاعت عندهم هذه الالقاب والنعوت وقامت مقام الاعلام عصورًا متطاولة حتى امتد المجتمع الاوربي باصوله وفروعهِ وكثرت افرادهُ فاتخذوا الاسم العائلي فارقًا وصارت الافراد تنسب اليهِ

واختلف الباحثون في شيوع الالقاب بين الانكليز فذهب فريق الى انها لم تكن معروفةً قبل الفتح النورمندي وقال آخرون انها كانت تتخذ على قلة لان النسق السكسوني كان على الاكثر بنسبة الابن الى ابيهِ بحيث كانوا يقولون مثلاً اكبرت ادكارين فاليا والنون في آخر ادكارين يعبر عنها بالسكسونية بالحروف ings وهي بمعنى ابن وتجدها في بعض الاسماء الحاضرة اثرًا لتلك التسمية كما تجد للصفات اثرًا في الالقاب بعد استعمالها . وثبوت هذه الالقاب واتصالها بالاعقاب لرثًا لم يجرِ الاَّ منذ القرن الحادي عشر . وكأنهُ اشتد سريعًا وتأصل في الطبقات العليا حتى حدث في منتصف القرن الثاني عشر ان الملك هنري الاول اراد ان يزوج ولدًا غير شرعيٍّ من بنيهِ فابت عروسهُ التزوج بهِ لانهُ لم يكن لهُ لقب

فانعم عليهِ ابوهُ بلقب Fitz-Roy اي ابن الملك وصار هذا اللقب يمنح لابنائه المتولد غير الشرعيين

وإنما بحثت في اسماء الاوربيين لما ذكرت فيما تجدها تدل على شيء مما قدمنا

ومما يستلفت الانظار عند الاوربيين انهم يسمون الاسم الشخصي باسم العماد او الاسم المسيحي وهذا التخصيص يدل على اصل وضعهِ حينما تنصَّر الاوربيون افواجاً فضلاً عن ان الطفل المسيحي يطلق عليهِ اسمهُ حين عماده ولذلك سموا الاسم كما رأيت

بقي ان نلمح الى ما هو شائع عندهم من النسبة بالاضافة الى اسماء المدن والقرى والمزارع - وعلامة الاضافة عندهم of بالانكليزية و De بالفرنساوية و Von بالالمانية فحسبهم بعض الباحثين من نالي درجات النبالة وخالفهم غيرهم بان علامة الاضافة لا تدل على النبالة بل على كونهم من اهل المواضع المنسوبين اليها

واما شأن النبلاء فان نسبتهم لبعض المواقع تظهر بعلامة الاضافة وهذه تشير الى ان تلك المواضع خاضعة لسيادة النبيل اسماً كما كانت من قبل اقطاعاً يسودها غيرهُ من النبلاء ومن زمن نظام الاقطاعات جرت عادة انتساب البلدان الى اصحابها او اشتهار النبلاء بسيادتهم فيها

وجرى المسلمون في التسمية على ما اخذوا عن العرب ثم اتصلوا بالاعاجم من فرس ويونان ورومان وقبط وارمن وغيرهم فاخذوا عنهم شيئاً . ولكن ظل المنهاج القديم غالباً فيهم وقتاً طويلاً ثم تجاروا غيرهم بالانتساب الى العيال والقبائل والبلاد على غير اطراد

واما الاتراك العثمانيون فان تغلُّب اسماء الافراد مع نسبتهم تارةً لاباتهم شاع استعمالهُ فيهم طويلاً ولكنهُ كاد يندرج الآن لان مناهجهم الحديث كاد يطمس على اسماء الآباء فضلاً عن العيال التي لم تبقَ النسبة اليها محفوظة الاَّ في صدور ابنائها . وانما يتخذ الاتراك اسمين اوهما من اسماء الانبياء او الصحابة والثاني يسمونهُ مخلصاً يتخذونهُ تارةً ولكنهُ ليس بفارق واسم العائلة مكتوم فلا يعرف الانسان الاَّ باسم وظيفتهِ وعمل وجودو او ان كان اوفر من النظراء تميز بالنسبة اليهِ فتقول مثلاً عمر زاده حسن افندي . ومن الغريب ان بعض المصريين والسوريين رغبوا في مشابهتهم وساروا على نهجهم حتى انك تجد اربعة اخوة احدهم يسمَّى محمد توفيق والثاني اسمعيل فتحي والثالث ابرهيم قدري والرابع علي فهمي وقد ضاع اسم العائلة الذي يجمعهم . الاَّ انهم قد اخذوا يعدلون عن ذلك الآن ويعودون الى اسماء عائلاتهم

ر . ن